الباب الرابع

الإخلاص والسنة وأثر التوحيد على الأمة الإسلامية

obeikandl.com

obeikandl.com

إخلاص النية
في الأعمال الظاهرة والخفية

(١) من شروط قبول الأعمال: إخلاص القصد والإرادة للّه ﷻ

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: آية ٣] وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزمر: آية ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [سورة البينة: آية ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [١]: «**إخلاص الوجه لله يتضمن القصد والنية، وذلك أن إسلام الوجه لله هو متضمن القصد والنية لله، وقد أثبتت هذه الكلمة الجامعة والقضية العامة هذين الوصفين، وهما إسلام الوجه ومقام الإحسان، وهما الأصلان المتقدمان، وهما كون العمل خالصاً لله موافقاً للسنة والشريعة، وقال ابن تيمية: فقد استعمل هنا عدة ألفاظ كإسلام الوجه في قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾** [سورة البقرة: آية ١١٢].

وكذلك إقامة الوجه في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف: آية ٢٩].

---

(١) من كتاب الأمر بالمعروف لابن تيمية، ص ٦٨.

وتوجيه الوجه كقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ٧٩].

وكذلك كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح في صلاته من الليل: «**وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**»[1].

فالوجه يتناول المتوجه والمتوجه إليه ويتناول المتوجه نحوه، فإذا توجه قلبه إلى شيء تبعه وجهه الظاهر، فإذا كان قصده ومراده وتوجهه إلى الله فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسناً فقد اجتمع له أن يكون عمله صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً.

وهو قول عمر رضي الله عنه: «**اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً**»[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك: آية ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه، فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: آية ١١٠].

---

(١) أخرجه مسلم في باب الذكر والتوبة ٧٧، ٧٨.

(٢) من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، ص٦٩.

فعلى الذي يريد الإقبال على الله بأي عمل من الأعمال أن يثني على الله بالحمد في أوله لأنه وفقه للقيام بطاعته في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٧] وأن يستغفر الله في نهايته خوفاً من تراجع نية القصد في ذلك، لأنه كان رسول الله إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً، قيل للأوزاعي ـ وهو أحد رواته ـ كيف الاستغفار، قال يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله[1].

(٢) أمثلة على تغيير نية القصد والإرادة

فعمل الخير إذا كان باعثه التقرب إلى الله وأضيف إليه خاطر من هذه الخواطر الدنيوية حتى صار العمل أخف عليه من هذه الأمور فقد خرج عمله من دائرة الإخلاص ومثال ذلك:

أن يحج ليصحح مزاجه بحركة السفر، أو للتخلص من شر يعرض له، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، أو ليشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام أو يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم[2].

ولخطورة هذا الأمر ـ فهو أصل لقبول الأعمال ـ كان السلف الصالح يتورعون عن إظهار النفس، فالرياء أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء، ولقد كان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: «**يا نفسي أخلصي وتخلصي**»[3].

وقال أبو الفضل بن عطاء: «**حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفي، ومداواة ما خفي صعب علاجه**

---

(١) رواه مسلم عن ثوبان ﷺ.

(٢) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، ص٢٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

ربما دخل عليك الرياء من حيث لا يراك الناس، واستشرافك أن يراك الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك»[1].

وسئل الإمام مالك رحمه الله عن الحكمة فقال: «**ما زهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بالحكمة، ثم قال: من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله في السر أكثر من عمله في العلانية لأن عمل السر منبع الإخلاص والإخلاص منبع الحكمة**»[2].

وقال ابن القيم في ثمرة الإخلاص التام لله وحده: «**أوجب الفوز برحمة الله ولذة الأنس والشوق إليه فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت والألم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه**»[3].

(٣) الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر

هناك شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته، وشرك يتعلق بمعاملته.

- فأما الشرك الذي يتعلق بمعاملته، ينقسم إلى أقسام عدة منها شرك الدعوة المشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٦٥].
- والثاني شرك المحبة، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٦٥].
- الثالث شرك في الطاعة، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: آية ٣١].

---

(١) الحكم العطائية، ص ١٠٤.

(٢) إيقاظ الهمم، ص١٠٤.

(٣) الفوائد، باب ثمرة الإخلاص، ص ٢٧٧.

- الرابع: شرك الإرادة والقصد، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة هود: آية ١٥].

فالفرق بين الشرك الأكبر والأصغر ما يلي:

١ ـ الأكبر لا يغفر لصاحبه وأما الأصغر فتحت المشيئة.

٢ ـ الأكبر محبط لجميع الأعمال وأما الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قارنه.

٣ ـ الأكبر مخرج عن الملة الإسلامية وأما الأصغر فلا يخرج منها.

٤ ـ الشرك الأكبر صاحبه خالد في النار، وأما الأصغر فكغيره من الذنوب وقيل أنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة كالأكبر[1].

(٤) الفرق بين هوى النفس وهوى القلب وخطورتهما:

«استحكام حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال».

يقول أحمد بن عجيبة: «**فالهوى على قسمين: هوى متعلق بالنفس وهوى متعلق بالقلب**»، فالهوى المتعلق بالنفس هي المتعة البشرية الظاهرة كلذة الأكل والشرب والنكاح والمركوبات وغيرها، إذ هي ظاهرة محسوسة بيّنها تعالى بقوله:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٤] فهذا يمكن دواؤه بالفرار من موطن الأشرار وبصحبة الأخيار وبكثرة الطاعة والأذكار.

---

(١) الكواشف الجلية، ص١٥٠.

أما الهوى المتعلق بالقلب كالرياء والسمعة حظها في الطاعة طلب الكرامة وخوارق العادات وحب الخصوصية والغل والحسد وغيرها مما يدور في القلب. وعلاج هذه الأمراض الخفية بالتوبة والمراقبة لله في الأعمال والبكاء والإنابة بخوف مزعج وشوق مقلق، وأن الفرق بين هوى النفس وهوى القلب بمثال سيدنا آدم عليه السلام وإبليس عليه لعنة الله، إذ أن حظ آدم هوى النفس وهي الشهوة أخرجته من الجنة وسيعود إليها، أما حظ إبليس هوى القلب وهو الكبر والعجب أخرجه من الطاعة وأدخله في النار خالداً مخلداً فيها[1].

سادساً: في أقسام الدعاء

(١) ما معنى قرب الله من عبده؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٦].

الآيات تدل على إثبات قرب الله ممن يقترب منه بالدعاء، وقربه نوعان: قرب عام وقرب خاص.

القرب العام: يقتضي العلم والاطلاع على جميع الأشياء.

القرب الخاص: قرب من داعيه بالإجابة وقرب من عباده بالإثابة، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينته لخلقه واستوائه على

---

(١) إيقاظ الهمم، ص ١٢٥.

عرشه[1] وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**[2].

(٢) من آداب الدعاء وأقسامه:

١ ـ الاستفتاح بالحمد والثناء على الله.

٢ ـ الصلاة على النبي ﷺ.

٣ ـ أن تسأل الله بأسمائه وصفاته.

٤ ـ أن تسأل الله بحاجتك وفقرك وذُلك بأن تقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير... ونحو ذلك.

٥ ـ أن تسأل الله حاجتك مع استحضار المعية وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: آية ٤].

٦ ـ التيقن أن الله سيستجيب لك لا محالة وذلك في قوله ﷺ: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»**[3].

٧ ـ أن يترصد بدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الشهر والجمعة من الأسبوع ووقت السحر من ساعات الليل.

وللدعاء ثلاث إجابات لما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث، إما أن يعجل له بدعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»**[4] وعلى

---

(١) الكواشف الجلية، ص٤٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، ص ١٨٧، ومسلم في الذكر، ص٢٦.

(٣) رواه الترمذي، ص(١٣، ٢٢) وحسنه المنذري ورواه الحاكم (١، ٤٩٣) وقال يستقيم الإسناد وحسنه الألباني بشهادة عن أحمد (٢، ١٧٧).

(٤) رواه الترمذي عن جابر (١٢، ٢٧٣) والحاكم (١، ٤٩٣) وصححه ووافقه الذهبي.

ذلك اتضح أنّ الدعاء ثلاث:

١ ـ دعاء معجل: أن يستجيب لك في حال دعائك أو بعده بقليل من الوقت.

٢ ـ دعاء مؤجل: لا يستجيب لك في حاله، ولكن يؤخره لك إلى يوم القيامة.

٣ ـ دعاء يرفع الله به من البلاء والسوء عن صاحبه.

(٣) معنى إذا سألت فاسأل الله:

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [سورة النساء: آية ٣٢] ويشهد لهذه الآية الحديث القدسي الآتي: «عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه جل وعلا: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»[(١)] وقال عليه السلام: «**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**».

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

«**إن الله حييٌّ كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردها صفراً خائبتين**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (٤، ١٩٩٤، ١٩٩٥) وأحمد (٥، ١٥٤، ١٧٧، ٢٩٧). والترمذي ٢٤٩٥.

(٢) رواه الترمذي (١٣، ٦٨) الدعاء وقال حسن غريب، وأبو داود (١٤٧٤) الصلاة، وابن حبان (٣٩٩) موارد، والحاكم (١، ٤٩٧) وصححه ووافقه الذهبي.

ولقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً، منهم أبو بكر الصديق وأبو ذر وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه[1] وقال بعض السلف: إني لأستحيي من الله أن أسأله الدنيا وهو مالكها فكيف أسألها من لا يملكها.. يعني المخلوق، وكان الإمام أحمد في دعائه: «**اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك**»[2].

قال أبو عتاهية:

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب

فاجعل سؤالك للإله فإنما ... في فضل نعمة ربنا نتقلب

(٤) العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان[3].

العطاء من الخلق حرمان لثلاثة أوجه:

(أ) إن الإلحاح في المسألة واليقين على الخلق دون الطلب من الله يجعلك في مقام البعد عنه، لذلك قالوا: «**إنكم تساقون بسياق الشهوة، وتملأ عقولكم بمشاهد الواقع المتعفن وتدورون في فلك لقمة العيش الذي ملئ بالنهب والسرقة وحجبكم عن معرفة الله ﷻ**».

(ب) إن السلف الصالح سألوا الله قبل أن يسألوا الناس، وأخذوا من الدنيا بقدر الضرورة، لذلك يقول أحدهم: سألت الله قبل أن أسألك فإن قضى الله لي حاجتي فاقض، وإن لم يقض الله لي حاجتي فلا تقض، فهم وقفوا خوفاً من تلك الآية: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ

(١) نور الاقتباس لابن رجب الحنبلي، ص٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٨١.

(٣) الحكم العطائية لابن عطاء، ص١٥١.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الأحقاف: آية ٢٠].

لذلك قال الشاعر رحمه الله:

دنيا تخادعني كأني لست أعرفها
مدت إلي يمينها فقطعتها وشمالها
منع الإله حرامها وأنا اجتنبت حلالها

وعن هذا المقام قال الحافظ المناوي: إن ذلك يتحقق بترك فضول الحلال حذراً من الوقوع في الحرام.

(ت) وأن النفس مجبولة على حب من أحسن إليها: فتسترق وتتصنع الأقوال والأفعال فتكون أسيرة في أيدي من أحسن إليها.

ومن وصية علي رضي الله عنه يقول: لا تجعل بينك وبين الله منعماً وعد نعمة غيرك عليك مغرماً، وأنشد يقول:

لعمرك من أوليته منك نعمة ... ومد لها كفاً فأنت أميره
ومن كنت محتاجاً إليه فإنه ... أميرك تحقيقاً وأنت أسيره
فعش قانعاً إن القناعة ... غنى للفتى وهذا مقتضى ما أشيره

والمنع من الله إحسان لوجهين:

١ ـ أنه سبحانه ما منعك بخلاً ولا عجزاً، ولكن لحسن نظرة لك، فإذا دعوته أخره لوقت هو أولى لك وأحسن، أو ادخر لك ذلك ليوم فقرك، أو ليرفع البلاء عنك.

٢ ـ ما في ذلك من رفع قدرك عنده من الوقوف ببابه واللياذ بجانبه[1].

---

(١) إيقاظ الهمم، ص ١٥١، ١٥٢ (بتصرف يسير).

سابعاً: السنة والبدعة وجهد أهل الباطل:

أولاً:

(١) السنة لغة هي الطريقة.

لفظ السنة في كلام السلف يتناول السنة في العبادات وفي الاعتقادات، وإن كان كثيراً ممن صنف في السنة يقصدون الكلام في الاعتقادات كقول ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي الدرداء ﷺ: «**اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة**» وكذلك هي الشريعة، وهي: ما أمر الله به ورسوله[1].

(٢) تمهيد حول سنته ﷺ.

إنه في وقت استشرى فيه الظلام، وخيم فيه العالم أجمع ظلمات بعضها فوق بعض، بعث نبيه للهداية ورحمة للعالمين ومنقذاً للبشرية جميعاً، قال عنه ربه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٥] فهو الذي نبئ بـ«اقرأ» وأرسل بالمدثر[2]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل: آية ١ ـ ٢] فللمدثر تحرك بالنهار، اخلولقت ثيابه، وشحب لونه، وللمزمل قام الليل كله، وللدعوة أمره الله ونهاه، فبالأمر قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [سورة يونس: آية ١٠٩] وبالنهي قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [سورة القلم: آية ٤٨].

زكاه ربه في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [سورة القلم: آية

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية، ص٧١.

(٢) الأصول الثلاثة، محمد بن عبد الوهاب، ص ٢٠.

٤] فلا نهج إلا منهجه ولا طريق إلا طريقه، سيرته عطرة وسنته عزة، من رآه أهابه ومن عرفه أحبه، حلمه يسبق غضبه، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً.

أقسم الله بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحجر: ٧٢] ولإظهار الحقائق الغيبية ومصير الكافرين قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة مريم: آية ٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النساء: آية ٦٥].

قال ابن عطاء الله: فيه دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يكون إلا لمن حكم الله ورسوله على نفسه قولاً وفعلاً وأخذاً وتركاً وحباً وبغضاً، فجاء بالانقياد والتسليم لحكم النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، حكم التصريف وحكم التكليف أن لا ينتابك الحرج من التمسك بهديه والاقتداء بسنته[1].

(١) الإخلاص ومتابعة السنة شرطان لقبول العمل:

ولهذا كان أئمة السلف يجمعون على أن هذين الأصلين شرطان لقبول الأعمال كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [سورة الملك: آية ٢].

قال: أخلصه وأصوبه.

---

(١) التنوير في إسقاط التدبير لابن عطاء الله، ص ١١ (بتصريف).

وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبير قال: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة[1].

(٢) أمثلة من الصحابة بالمتابعة والخوف من رد فعل النبي ﷺ:

لقد ضرب السلف رضي الله عنهم أجمعين المثل الأعلى بالمتابعة للنبي ﷺ في سيرته وسريرته وفعله وتقريره.

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما في قصة عروة بن مسعود الثقفي عندما جلس مع الرسول ﷺ وجعل يرمق أصحابه وقال لقومه عندما رجع إليهم: «**أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه كتعظيم أصحاب محمد محمداً، فوالله ما تنخم رسول الله نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا لأمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له**»[2].

(٣) التحذير من رد فعل النبي أو إحداث شيء نسبة للدين:

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الأحزاب: آية ٢١].

عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[3].

---

(١) البحر الرائق لأحمد فريد، ص٢٤ ـ ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري، في قصة صلح الحديبية (١/ ٣٧٨).

(٣) متفق عليه.

وعلى ذلك كل ما رد فعل النبي أو أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل في الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه سواء كان في مسائل الاعتقادات أو الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة[1].

قال الإمام أحمد في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور: آية ٦٣] قال: الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك [2].

ويدل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك رسول الله فخطب فحمد الله ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**»[3].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [سورة محمد: آية ٩].

(٤) تحذير السلف من البدعة.

البدعة هي فعل لم يكن ـ يعني على عهد الصحابة رضي الله عنهم، فابتدع ـ والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة[4].

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته: «**إن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور**

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، ص٥١.

(٢) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، ص٧٠.

(٣) متفق عليه.

(٤) البحر الرائق لأحمد فريد، ص٢٦ ـ ٢٧.

محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[1] فقوله «**كل بدعة ضلالة**» هي من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء وهو أصل عظيم من أصول الدين شبيه بقوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[2].

وروى أبو داود في سننه عن حذيفة رضي الله عنه قال: «**كل عبادة لم يتعبد بها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تتعبدوا بها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً، فاتقوا الله يا معشر القراء، خذوا طريق من كان من قبلكم**»[3].

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: «**سيأتي قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهن بالسنن فإن السنة أعلم بكتاب الله عز وجل**»[4].

وعن أبي البحتري قال: أخبر رجل عبد الله بن مسعود أن قوماً يجلسون في المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول: كبروا الله كذا وكذا، وسبحوا الله كذا وكذا، واحمدوا الله كذا وكذا، فأتاهم ابن مسعود فقال لهم: والله الذي لا إله غيره، لقد جئتم ببدعة ظلماً ولقد فضلتم أصحاب محمد عليهم السلام علماً، فقال عمر بن عتبة: أستغفر الله، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالطريق فالزموه ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لضللتم ضلالاً بعيداً [5].

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**إن أبغض الأمور إلى الله البدع، وإن من البدع الاعتكاف في المساجد التي في الدور**»[6] وعن

---

(١) الحديث أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) الأمر بالإتباع للسيوطي، ص٦٢، والبخاري الاعتصام بالسنة (١٣ ـ ٢٥٠) رقم (٧٢٨٢).

(٤) أخرجه الدارمي: السنن (١ ـ ٤٩).

(٥) أخرجه الدارمي: السنن (١ ـ ٦٨ ـ ٦٩) بإسناد جيد.

(٦) أخرجه البيهقي: السنن الكبرى (٤ ـ ٣١٦).

عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم**»[1] وقال الفضيل: «**من أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام**» وقال مالك بن أنس: «**إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله وما البدع، قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون، وقال: لو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام ولكنه باطل يدل على باطل**[2] **ويقصد بذلك الخوض في الأسماء والصفات كما هو منهاج أهل الكلام.**

وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصري: «**السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله**»[3].

وقوله: «**بين الغالي والجافي**» فإنه يقسم الناس إلى قسمين، قسم استغنى بجهله لطلب الدنيا وشهواتها بالحلال والحرام، فشغلهم ذلك عن طلب العلم الشرعي فدخلت البدعة عن طريقهم، والقسم الآخر تبوتق حول نفسه ولم يتحرك بهذا العلم أو ينقله إلى أهل الجهل بل كتم العلم ليماري به السفهاء ويتشدق فيه بالكلام.

(٥) التحذير من التشبه بالكفار.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [سورة البقرة: آية ١٢٠].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[4] وفي كتاب عمر بن الخطاب إلى عتبة ابن فرقد: «**وإياك وزي**

---

(١) البحر الرائق، أحمد فريد، ص٢٥.
(٢) البيهقي، شرح السنة (١ ـ ٢١٧).
(٣) البحر الرائق، ص٢٥.
(٤) رواه أحمد وأبو داود.

أهل الشرك»[1].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «**التشبه بالكفار منهي عنه بالإجماع**»[2] فإذا قرأنا سورة الفاتحة اتضح لنا أن الله سبحانه يأمرنا بطلب الهداية ويحذرنا من طرق الغواية في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ذلك صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وطريق المغضوب عليهم والضالين الذين جعل الله تعالى منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت.

أما الصفة التي تميز القردة فعورتها مكشوفة، وأما الخنازير فإنها فاقدة للغيرة، وأما عبدة الطاغوت بأنهم أهل البدع والأوثان والخرافات، لذلك جاءت سورة البقرة تشرح أخبار اليهود، وسورة آل عمران تشرح أخبار النصارى بمثابة تحذير للأمة الإسلامية.

جهد أهل الباطل

فاجتهد أهل الباطل في إدخال تلك الصفات الذميمة في حياة المسلمين بمكرهم وأساليبهم من عدة عوامل:

أولاً: إدخال الشبة والبدع في دين الله ﷻ.

وذلك بتجنيد كثير من أهل الأهواء للقيام بالطعن بخواص الأمة عن طريق الوعظ والإرشاد والجرح والتعديل، أدى ذلك الأمر إلى ظهور كثير من الفرق والأحزاب المخالفة لمعتقد أهل السنة والجماعة.

---

(١) موارد الظمآن للسلمان، ج٣ص١٩٨.

(٢) المرجع السابق.

قال سبحانه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الروم: آية ٣٢] كالخوارج والمعتزلة والرافضة والمرجئة والقدرية والجبرية وغيرها من الفرق الضالة التي لا تخفى على الكثير.

وروى ابن حميد عن مالك: «**لم يكن شيء من هذه الأهواء في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان**»[1] وكان مالك يشير بالأهواء إلى ما حدث من التفرق في أصول الدين من أمور الخوارج والروافض والمرجئة ونحوهم ممن تكلم في تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم، أو تخليدهم في النار، أو في تفسيق خواص هذه الأمة، أو عكس ذلك ممن زعم أن المعاصي لا تضر أهلها وأنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، حتى ظهر عصر شيخ الإسلام ابن تيمية وأرجع الأمة إلى الكتاب والسنة ومنهاج سلف الأمة مما نتج عن ذلك الإيضاح في أقسام التوحيد الثلاثة: الألوهية ـ الربوبية ـ والأسماء والصفات.

يقول صاحب كتاب الصحوة الإسلامية:

وآفة بعض من يدعون العلم الشرعي، أنهم يجمعون الناس على ما يرونه حقاً أو صواباً، ورفض ما عداه مما يعتبرونه باطلاً أو خطأ، ونسي هؤلاء أن الإعجاب بالرأي أحد (المهلكات) وأن بحسب المرء أن يحقر أخاه المسلم، ومن ذلك أن يحقر رأيه، إن الخوارج الذين كفروا المسلمين، واستحلوا دمائهم وأموالهم، ومن لحق بهم من دعاة التكفير حديثاً ـ إنما سقطوا في هذه الحفرة لعدم ضبطهم لمفاهيم ومصطلحات كثيرة وردت في نصوص الشرع، فأساءوا فهمها، ووضعوا لها مدلولات

---

(١) البحر الرائق، ص٥٦.

من عند أنفسهم غير ما أراده الشارع منها، فضلوا وأضلوا، ومن ذلك: مصطلحات الإيمان والكفر، والشرك، والنفاق، والجاهلية، وما يحوم حول هذه المعاني، فكفّروا وشرّكوا وبدّعوا وسبوا وشتموا، وآفة كثير من الدخلاء على العلم أنهم لا يعرفون إلا رأياً واحداً ووجهة واحدة، أخذوا عن شيخ واحد، أو انحصروا في مدرسة واحدة، ولم يتيحوا لأنفسهم أن يسمعوا رأياً آخر، أو يناقشوا وجهة نظر الأئمة القدامى، وقلدوا بعض المعاصرين، وأنهم ينكرون المذاهب، وقد جعلوا من آرائهم مذهباً خامساً يقاتلون دونه، ولو وسعوا آفاقهم لعرفوا أن الأمر يتسع لأكثر من رأي، وأن الآراء المتعددة يمكن أن تتعايش، وإن اختلفت وتعارضت، المهم أنها على الكتاب والسنة وما سار عليه سلف الأمة.

والمهم كذلك هو الإنصاف وترك التعصب، والاستماع إلى الآخرين، فقد يكون أصوب قولاً وأصح فهماً[1].

وهم لا يعلمون أنهم يمزقون الأمة ويفرقون جمعها حتى أنه ما سلم من لسان ممن يدعي الجرح والتعديل أكابر العلماء وخواص الأمة السالفين واللاحقين، وأنهم لا يعلمون أنهم بذلك يشوهون صورة الإسلام، وقد وصف الله تعالى اليهود في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة الجاثية: آية ١٥ ـ ١٦ ـ ١٧].

وعلى ذلك فإن اليهود ومن شاكلهم اجتهدوا في إدخال تلك

---

(١) د. يوسف القرضاوي ـ كتاب الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص١٢٣ (بتصرف يسير).

الصفة الذميمة بين المسلمين والتي وصفها الله تعالى عنهم في قوله جل وعلا:

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ﴾ [سورة الجاثية: آية ١٧].

ثانياً: إدخال الفرقة بإثارة النعرات الطائفية بين المسلمين بسياسة (فرق تسد) أو ما يعرف (بالحدود الجغرافية).

ثالثاً: الجهد على المرأة عن طريق وسائل الإعلام والمجلات والشعارات الزائفة كشعار الحرية وشعار الحضارة والتقدم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [سورة الطارق :آية ١٥، ١٦، ١٧].

رفعوا شعار التحرر من قيود الزوج بمخالطة الرجال حتى تبتعد المرأة عن وظيفتها الأساسية وهي عبادة الله وحده وإخراج جيل كخالد بن الوليد وصلاح الدين وغيرهم من سادة الأمة، وفي أيامنا هذه أتعجب كثيراً من تلك المرأة أو تلك الفتاة التي ذهب حياؤها وذهبت غيرتها فراحت تخالط الرجال وتمشي في الأسواق متبرجة متعطرة بعدما خلعت جلبابها وخمارها وانسلخت من دينها لتلاحق الرجال وتسافر إلى البلدان، دون أن تستحيي من الله أو من الناس، ونسيت أو تناست أنها كريمة ابنة كريم، اختارها الله واجتباها من سائر الخلق بأن جعلها مسلمة موحدة، فهي كالجوهرة المكنونة التي لا يطلع عليها إلا مالكها.

رابعاً: إدخال الشبه في الأموال (حجب استجابة الدعاء)

إن قاعدة الأمة اليوم ليست مهيأة لاستقبال أحكام الله في الأمر والنهي إلا من رحم الله ﷻ، وأنت ترى من استباحة الكبائر والصغائر دون خوف من عقاب الله وبطشه وما ذلك إلا للبعد الكبير

بين الواقع المرير الذي تعايشته الأمة في أيامنا هذه وبين العصور الذهبية عصور أسلافنا الصالحين وأتباعهم، حيث الرخاء العلمي والعقدي والديني، مما جعل الناس يتنقلون من مكان إلى مكان ومن مصر إلى مصر تعليماً لدينهم وإعلاء لكلمة ربهم وهو عصر السلف الصالح ﷺ أجمعين.

أما في أيامنا هذه حيث انفتاح زهرة الدنيا ودخول الرخاء المادي فقد تروضت النفوس تلقائياً على الترحال من مكان إلى مكان ومن مصر إلى مصر طلباً للدنيا، ناهيك عن التخلف العقدي والديني، فالعبادة صورية ليست لها أساس من العلم الذي ينير للإنسان بصيرته في معرفة الحلال من الحرام، مما نتج عن ذلك أن أصبحت أموال المسلمين ملوثة بالربا، فمساكنهم ومراكبهم وتجارتهم بل وصل الأمر إلى زواجهم وتناسلهم.

فأحكم أهل الباطل قبضتهم واستشرى فسادهم وجرت في دماء المسلمين عقيدتهم، ، فنستغفر الله مما حل بنا ونسأله كشف الضر عنا فلا يستجيب لنا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٧٩].

والمسلم صار كالرجل الذي خدر عضو من جسده ليستأصل منه وهو لا يحس ولا يشعر ونسأل الله العافية.

خامساً: تصدير المأكولات الملوثة بدهن الخنزير للمسلمين.

وهذا واقع نعيشه وحكم كوني قدر علينا: رجال مسخت قلوبهم إلى قلوب شياطين ونساء تعرت وأمراض انتشرت فمأكلنا حرام ومشربنا حرام فأنى يستجاب لنا والعصمة من ذلك بما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠١].

ثامناً: تحقق النصرات الغيبية بترسيخ كلمة التوحيد في حياتنا.

(١) الآثار التي تصدر من القلب على الجوارح وأسبابها.

إن جهد الأنبياء محلة ترسيخ كلمة التوحيد في قلوب البشرية، فإذا استمكن التوحيد من القلب تأثرت به الجوارح وظهرت آثارها على أعمال الإنسان موافقة لأوامر الله الشرعية، سواء في العبادات أو المعاملات أو المعاشرات المتبادلة بين الخلق، وبقدر استقرار التوحيد في القلوب وترسيخ اليقين على ذات الله ﷻ تظهر قوة الامتثال للأوامر التشريعية، قال ﷺ:

«ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[(١)].

وتظهر آثار الأوامر التي تصدر من القلب على الجوارح بالخير أو بالشر على الأفراد والمجتمعات، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الروم: آية ٤١].

وانظر إلى من امتلأ قلبه إيماناً وتوحيداً وأنساً بالله ﷻ، فلا يجزع من أي أمر أصابه، فهو بالتوحيد على كل حال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: **«سجني خلوة، نفيي سياحة، قتلي شهادة»**[(٢)].

فإذا عمرت القلوب بالتوحيد والإيمان بالله أصبح كل ضيق واسعاً.

---

(١) متفق على صحته من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) محاضرة مسجلة للشيخ / عايض بن عبد الله القرني (بعنوان: أما بعد) مؤسسة اليقين للإنتاج والإعلام والتوزيع.

قال الشاعر:

ربي لو شئت فالفضاء مضيق وإذا شئت فالمضيق فضاء

(٢) صلاح الأوامر الكونية مربوط بصلاح الأوامر التشريعية.

قال ابن الجوزي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: آية ١١] من أحب تصفية الأحوال فليجتهد في تصفية الأعمال[١].

المعاصي سبب المصائب، والطاعة سبب النعم

قال ابن تيمية: إن المعاصي سبب المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الشورى، آية: ٣٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٦٥].

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها الذنوب والمعاصي، ورأى ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها ومن تبعهم من العامة هذا أصلها، ويدخل في ذلك أسباب الضلال والغنى: الأهواء الدنيوية والشهوانية والبدع في الدين والفجور في الدنيا ولهذه الذنوب ثلاثة أقسام:

أحدها: ما فيه من الظلم للناس كالظلم بأخذ الأموال ومنع

---

(١) من كتاب صيد الخاطر، ص٢٠.

الحقوق والحسد ونحوه.

والثاني: ما فيه من ظلم النفس كشرب الخمر والزنا إذا لم يتعدى ضررهما.

والثالث: ما يجتمع فيه الأمران، مثل أن يأخذ المتولي أموال الناس ليزني بها ويشرب الخمر[1].

نزول النصرات الغيبية لتطبيق الأوامر التشريعية.

ذكر الشيخ عبد العزيز السلمان رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية في قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: آية ٥٤].

قال: فإن الكتابة تكون تشريعية وتكون كونية، فالكتابة الشرعية الأمر به كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [سورة المائدة: آية ٤٥].

والكتابة الكونية القدرية: كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [سورة المجادلة: آية ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأنبياء: آية ١٠٥][2].

قلت: إن الله جل وعلا له أوامر تشريعية وهي الأصل الأصيل الذي خلق الخلق لأجله بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

---

(١) من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، ص٣٣ ـ ٣٥.

(٢) الكواشف الجلية للسلمان، ص٤٨٩.

لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات: آية ٥٦] وأوامر كونية وهو فعل الله وتدبيره لكونه وخلقه وعليها يكون الأمر بذلك:

١ ـ فتح البركة ونزولها من السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: آية ٩٦].

٢ ـ حصول طمأنينة القلب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد: آية ٢٨].

٣ ـ حصول السعادة في الدارين في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل: آية ٩٧].

٤ ـ النجاة من المصائب وتنفيس الكروب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٨٨].

٥ ـ تحقيق الأمن والاستقرار في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ٨٢].

٦ ـ حصول المودة والرحمة بين الخلق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [سورة مريم: آية ٩٦].

٧ ـ تحقيق الخلافة في الأرض، في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [سورة النور: آية ٥٥].

(١) ظهور أثر التوحيد على حياة البشر في القرون الأولى من البعثة:

- **ظهور أثر التوحيد في نظام المعاملات والمعاشرات.**

نظام المعاملات:

إن مقاصد الإسلام التي دل استقراء نصوص الشريعة عليها هي تحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد والأضرار عنهم في العاجل، وبهذا كله تتحقق لهم السعادة الحقيقية في حياتهم هناك، وبهذا صرح المحققون من علماء الإسلام، قال الإمام العز بن عبد السلام: «**إن الشريعة كلها مصالح: إما درء مفاسد أو جلب مصالح**»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**أن الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها**»[2].

وقال الشاطبي: «**الشريعة وضعت لمصالح العباد**»[3] لذلك ربط الإسلام بين هذه الأمة جميعاً وجعلها سيدة العالم برابطة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٣٩].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [سورة التوبة: آية ٧١].

فبين تعالى أن الصفة الإيمانية هي المدلول الذي يؤدي للولاية الحقيقية بين المسلمين، لأن درجة الإيمان هي الحياة العملية التطبيقية لكل ما شرع الله ورسوله للمسلمين بعضهم لبعض.

ولقد رفع الإسلام من قيمة الفعل المتعدي نفعاً للغير بأن جعله مضاعفاً قولاً كان أو فعلاً، والعكس كذلك الذنب المتعدي للغير أعظم حرمة من الذنب الخاص.

وأقام الشرع هذه الأمة على الطهر وتحصيل الأسباب الدنيوية،

---

(١) القواعد للعز بن عبد السلام، ج٢، ص٩.
(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية، ج١، ص١٤٧.
(٣) الموافقات للشاطبي، ج٢، ص٦.

عن طريق الكسب المباح شرعاً دون الغش والخديعة، ومثال ذلك قال عليه الصلاة والسلام لرجل: «**إذا بايعت فقل لا خلا به**»[1].

وقوله ﷺ: «**لا يبيع أحدكم على بيع أخيه**»[2] وأقام الإسلام العقوبات التي تمس الأموال والأنفس والحريات لتحقيق الأمن والعدل ومثال ذلك:

١ ـ عقوبة السرقة وهي اعتداء على مال الغير بأخذه خفية ظلماً بشروط معينة (أن يكون محرزاً ولا تقل قيمته عن ربع دينار)، وعقوبتها قطع اليد[3] قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة المائدة: آية ٣٨].

٢ ـ عقوبة قطع الطريق أو الحرابة[4] عند الفقهاء الخروج على المارة لأخذ المال منهم مجاهرة بالقوة والقهر، مما يؤدي إلى امتناع الناس عن المرور وقطع الطريق، سواء ارتكب هذه الجريمة فرد أو جماعة بسلاح أو غيره، ويسمى مرتكب الجريمة بالمحارب، وعقوبتها القتل أو تقطع أعضائهم أو يصلبوا أو ينفوا من الأرض.

نظام المعاشرات:

إن عقوبات الأوامر الشرعية بنيت على أساسين كبيرين:

الأول: العدل، والثاني: الردع، والأوامر الشرعية هي لتحقيق السعادة البشرية في الدارين، وجعل العقوبة بقدر الجريمة، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: آية ٤٠] والردع في

---

(١) متفق عليه، رواه ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أصول الدعوة لزيدان، ص٢٨٨.

(٤) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص٨٢ ـ ٨٣.

مقدار الألم الذي تحدثه العقوبة في المجرم وما تسببه من فقدان حريته أو بعض أعضائه، ولاشك أن فقده هذه الأشياء يؤلمه ويخيفه فيمتنع عن الإجرام.

ففي نظام المعاشرات قال تعالى عن المحافظة على سمعة المسلم وعرضه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النور: آية ١٩] وقال عليه الصلاة والسلام: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيرهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**»[1].

ولخطورة إشاعة الفاحشة بين المسلمين قال الفضيل بن عياض: «**من أعان على إشاعة الفاحشة بين المسلمين فكأنما فعلها**»[2].

وبين الإسلام عقوبة القذف، درءاً للمفسدة وجلباً للمصلحة[3] فالقذف شرعاً: الاتهام بالزنا أي نسب للشخص تهمة الزنا بشروط معينة، وعقوبته الجلد ثمانون جلدة قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة النور: آية ٤].

وعقوبة الزنا: وهو وطء وقع على غير نكاح ولا شبه نكاح ولا ملك يمين، عقوبته الجلد لغير المحصن مئة جلدة وتغريب سنة.

والرجم: هو رجم الزاني بالحجارة أو ما يقوم مقامها حتى

---

(١) رواه الترمذي (٢١١٨) وقال حديث حسن صحيح، والتبريزي في المشكاة، ص٢٣١.

(٢) أصول الدعوة لزيدان، ص٢٨٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨٦.

الموت، ولا يجب الرجم إلا للمحصن بإجماع العلماء.

والتغريب: معناه نفي الزاني عن البلد الذي زنا بها إلى بلد غيره، واختلف العلماء في ذلك وليس هذا محل البحث[1].

ظهور أثر التوحيد في النظام الحاكم

إذا تبين لنا أن الخليفة والأمة خاضعون لسلطان الإسلام، فإن معنى ذلك أن الدولة الإسلامية يمكن وصفها بأنها «**دولة قانونية**» أي أنها تخضع في جميع تصرفاتها وشؤنها كما يخضع جميع الأفراد في جميع تصرفاتهم وعلاقاتهم إلى القانون، وهو القانون الإسلامي المتمثل في الكتاب والسنة، وما قام عليهما من استنباط صحيح واجتهاد سائغ مقبول، وظهور أثر التوحيد على النظام الحاكم بالمراقبة على جميع شؤون الحياة كلها أدى ذلك إلى ترابط المجتمع وظهور العدل والمساواة وظهور مقاصد الحكم ومنها:

١ ـ حراسة الدين، أي حفظه وتنفيذه.

٢ ـ إقامة العدل بين الناس.

٣ ـ إشاعة الأمن والاستقرار.

٤ ـ تهيئة ما يحتاجه الناس.

٥ ـ استثمار خيرات البلاد[2].

أثر التوحيد في مراقبة الأمراء والولاة في الدولة الإسلامية: ـ

ومنها بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه برسالة إلى مالك بن

---

(١) أصول الدعوة لزيدان، ص ٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠ (بتصرف).

الأشتر، وكان والياً على مصر فقال: الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من أهل البؤس والزمنة، اجعل لهم مما في بيت مالك، فإن للفقير ما للغني، وإن للضعيف ما للقوي، ولا تصغر خدك عنهم، ولترفع إليك أمور من لا يصل إليك من رعيتهم فإن هؤلاء أولى بالإنصاف من غيرهم، فإن فيهم القانع والمعتر لا ينصب نفسه إليك.

وبعث عمر بن الخطاب ﷺ برسالة إلى أبي موسى الأشعري وكان والياً على الكوفة قال: «**وآسى بين الناس في مجلسك ووجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك**»[1].

ذكر صاحب كتاب السلطة القضائية في الإسلام: قد فهم ولاة الأمور في الدولة الإسلامية أن أساس الحكم في الإسلام هو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فهذا عمرو بن العاص يقول:

(لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بالعدل) وهذا عمر بن عبد العزيز يكتب إلى أحد عماله حينما استأذنه في تحصين المدينة التي يعمل عليها قائلاً: (حصنها بالعدل ونق طريقها من الظلم).

ومن النماذج الذي تبين أثر التوحيد في النظام الحاكم: موقف القاضي شريح من الأشعث شيخه وسيده: فقد دخل الأشعث بن قيس على القاضي شريح في مجلس الحكومة، فقال له شريح: مرحباً بشيخنا وسيدنا. وأجلسه معه، فبينما هو جالس معه إذ دخل رجل

(١) المرافعات والتنفيذ، ص ١٢٨، د. محمود مصطفى، كلية الشرطة، أبو ظبي (بتصرف).

يتكلم مع الأشعث فقال له شريح: قم واجلس مجلس الخصم وكلم صاحبك قال: بل أكلمه في مجلسي، فقال له شريح: لتقومن أو لآمرن من يقيمك فقام امتثال لأمر القضاء[1].

ولما ولي عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء قاضي القضاة في مصر، نظر فوجد معظم أمراء الدولة من المماليك الذين اشتراهم السلاطين بأموال بيت المال. وانخرطوا في سلك الجندية، وبلغوا رتبة الإمارة والوزارة، فكان يقضي ببطلان تصرفاتهم وعقودهم من بيع وشراء ورهن وإيجار وخلافة لما ثبت لديه من بقاء الرق في أعناقهم. ولما نوقش في ذلك أصر على رأيه إلا أن ينادى هؤلاء الأمراء ويباعون ويوضع ثمنهم في بيت المال، وبذلك ينال كل منهم حريته ويصبح أهلاً للتعاقد، فعجبوا كذلك وهموا بقتله، فأمره السلطان أن يدعهم وشأنهم، فلم يقبل ابن عبد السلام، واستقال وخرج من مصر ووضع أمتعته على حمار وأركب أسرته على حمار آخر، وسار خلفهم فهاج الناس في ثورة فخاف السلطان على ملكه وخرج الى الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فلحق به واسترضاه و أعاده إلى عمله وتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحد واحد وتغالى في ثمنهم ثم كتب لكل منهم إشهاداً شرعياً بحريته.

وتمكيناً لاستقلال القضاء في الدولة الإسلامية وإبعاداً لغير القضاة من رؤساء الدولة عن التحكم في أمورهم، أنشىء منصب قاضي القضاة في العصر العباسي الأول، وأصبح شاغل هذا المنصب هو المهيمن على تعيينهم وعزلهم وتفقد أعمالهم ومراجعة أحكامهم. وهكذا أصبح للقضاء ولاية خاصة وللقضاة رئيس منهم ينظر شئونهم،

(١) تاريخ القضاء في الإسلام لابن عرنوس ص٢٣.

ويتولى أمرهم، وأول من تولى هذا المنصب هو الإمام أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد. انتهى[1].

obeikandl.com

(١) السلطة القضائية ونظام القضاء في الإسلام د/ نصر فريد محمد واصل ص٢٢٤ (بتصرف يسير).